أثر القرآن في تطور البلاغة والنقد

سعد محمد علي التميمي *

الخلاصة :

يعالج هذا البحث أثر القرآن من خلال فكرة الإعجاز في تطور البلاغة والنقد إذ وقفنا عند ثلاث مراحل مر بها كل من البلاغة والنقد ، تمثلت الأولى بالنشأة والتطور وقد امتدت من القرن الأول الهجري حتى الخامس ، أما المرحلة الثانية فقد تمثلت بقمة التطور والازدهار حيث تكامل فيها النقد مع البلاغة وتجسد ذلك في القرن الخامس على يد عبد القاهر الجرجاني ، فيما بدأت المرحلة الثالثة من القرن السادس وامتدت إلى الوقت الحاضر ، وابتعد فيها النقد والبلاغة عن القرآن فاضمحل النقد وتحولت البلاغة إلى علم تعليمي جاف وغلب عليه الجمود وبذلك يتضح الأثر الكبير للقرآن في تطور البلاغة والنقد .

* أستاذ مساعد – قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة إب .

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي من على عباده بخلقهم ، ودعاهم إلى الإيمان به وبملائكته وكتبه واليوم الآخر ، وفتنهم ليعلم الذين صدقوا في إيمانهم وليعلم الكاذبين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد الصادق الأمين وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه أجمعين .

لقد جاءت الدعوة الموجهة من جامعة الزرقاء لجامعة إب للمشاركة في المؤتمر العلمي الثاني الذي تقيمه تحت عنون (الأدب الإسلامي الواقع والطموح) لتترجم الدعوات الصادقة من قبل بعض الباحثين والمفكرين المسلمين التي تطالب بضرورة العودة إلى القرآن الكريم لإعادة الصلة الوثيقة بين الإسلام والأدب من جهة وبين الإسلام وعلوم العربية التي احتضنت الأدب من جهة أخرى ، لتحقيق فائدتين: الأولى تتمثل في توظيف الأدب في نشر الفضيلة والدعوة لإصلاح المجتمع والثانية تتمثل في الإفادة مما يمتلكه القرآن الكريم من معان سامية وتراكيب راقية وصيغ رفيعة وصور حية ، يضاف إلى هاتين الفائدتين الحالة التي تمر بها بعض علوم العربية من تدهور وجمود وبشكل خاص البلاغة والنقد ، إذ توقفت البلاغة عن طرح الجديد في المنهج والتناول منذ أن حول السكاكي هذا الفن إلى علم تعليمي خال من الروح الفنية أما النقد فقد اختفت الدراسات القيمة التي كنا نراها في القرنين الرابع والخامس الهجريين أما في وقتنا الحاضر فقد أخذ الباحثون باجترار ما طرحه السكاكي وشارحو كتابه المشهور (مفتاح العلوم) وملخصوه ،أما النقاد فنرى معظمهم يلهث وراء ما ينتجه الغرب من مناهج حتى وإن كانت هذه المناهج تكرر ما طرحه بعض نقادنا المسلمين قبل عدة قرون لكنها غلفت بمصطلحات غربية .

ومعالجة لهذا الوضع الذي وصلت إليه البلاغة وكذلك النقد قررنا المشاركة في هذا المؤتمر ببحثنا الموسوم بـ (أثر القرآن في تطور البلاغة والنقد) ولما كانت المؤثرات الإسلامية عديدة ومتنوعة فقد آثرنا أن نختار قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تحريك الحركة العلمية وبشكل خاص البلاغة إذ أخذت بالتطور والازدهار أكثر فأكثر وانتقل هذا التطور بشكل مباشر للنقد ، إذ اعتمد النقد بشكل كبير على البلاغة ، بل أحياناً تقوم الجهود النقدية بشكل كامل على البلاغة مثل كتاب " العمدة " لابن رش يق وكتاب " سر الفصاحة " لابن سنان ، ولعل هذا التداخل الكبير بين البلاغة والنقد الذي وصل إلى قمته عند عبد القاهر الجرجاني هو ما جعلنا نختار أثر القرآن

في تطورهما معاً ، إذ كانت نشأتهما وتطورهما متوازية وكذلك تدهورهما ، ولما كانت هناك دعوات من أجل إرساء نظرية نقدية عربية مستلهمة من الإبداع العربي والإسلامي فإننا ندعو للعودة للقرآن والإفادة منه في فهم أسرار التركيب اللغوي والجمال الفني ، وفي تطوير النظرية النقدية العربية بما يجعلها تلائم العصر.

وقد جاء تقسيم البحث على ثلاثة أقسام ليقف عند المفاصل الرئيسية التي مرت بها البلاغة والنقد ، فالقسم الاول خُصص للوقوف عند النشأة والتطور حتى وصولهما (أي البلاغة والنقد) إلى قمة ازدهارهما وتداخلهما ،وفي هذا القسم سوف نحاول أن نقف وبشكل سريع عند أهم الإضافات التي قدمها علماء البلاغة ونوضح أثر القرآن في ذلك لنبين كيف كان القرآن يدفع هؤلاء العلماء للبحث والتحليل للوصول إلى مقاييس وأسس تُكشف من خلالها القيم الجمالية والبلاغية للنص ، وقدرة صاحبه في التأثير في المتلقين وشحذ انتباههم وكيف كانت محاولاتهم الأولى مع القرآن للكشف عن أسرار إعجازه وكيف تطورت نظرتهم لهذا الإعجاز. أما القسم الثاني فقد خصص لجهود العلماء في القرنين الخامس والسادس الهجريين وبشكل خاص الجرجاني والزمخشري حيث اكتملت مبادئ فن البلاغة التي يكشف من خلالها الناقد عن جماليات النص وقدرات صاحبه بعد أن أرسى الجرجاني نظريتي علمي البيان والمعاني في كتابيه " أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز " ويعد كتابه الثاني قمة ما وصلت اليه نظرية النقد العربي ولو حاول الباحثون والنقاد دراسته بشكل علمي ودقيق لما كانت هناك حاجة للهاث وراء ما ينتجه الغرب من نظريات ومناهج نقدية ، فمعظم ما يطرحه الغرب موجود في هذا الكتاب من أهمية الذوق ومراعاة المتلقي ودور الجانب النفسي والسياق وغيرها من القضايا التي يقوم عليها النقد الأوربي الآن وسوف نحاول أن نبين من خلال هذا القسم أبرز ما قام به الزمخشري في عملية إتمام نظريتي علم المعاني والبياني اللتين قدمهما الجرجاني وذلك من خلال تطبيقهما على القرآن الكريم مما عكس أثر القرآن في تطوير قدرات الزمخشري، أما القسم الثالث من هذا البحث فسوف نقف فيه عند مرحلة الجمود والتراجع الذي وصلت إليه البلاغة وبالتالي النقد ونحاول أن نعلل أسباب هذا التدهور من خلال الوقوف عند بداية هذه المرحلة المتمثلة بجهد السكاكي في كتابه (مفتاح العلوم) وبشكل خاص القسم الخاص بالبلاغة إذ حول فن البلاغة الذي قام عليه النقد إلى علم منطقي تعليمي جاف خالٍ من الذائقة النقدية وبعيد عن المنهج

التحليلي الذي رأيناه عند الجرجاني والزمخشري وسوف نمر سريعاً عند بعض الجهود التي تبعته والتي كانت عبارة عن شروحات وتلخيصات تعليمية ، وبعد هذه الأقسام الثلاثة حاولنا استخلاص النتائج والتوصيات التي خرجنا بها من خلال رحلتنا مع البلاغة والنقد في ظلال القرآن.

البلاغة والنقد حتى القرن الخامس :

لقد كانت نشأة البلاغة والنقد عبارة عن أراء سريعة وإشارات عامة يلقيها بعض الشعراء لبعضهم الآخر ، و كان النقد متلازماً مع البلاغة منذ النشأة الأولى في العصر الجاهلي إذ غالباً ما تستند الآراء النقدية الانطباعية والارتجالية إلى أسس ومبادئ في صميم البلاغة ، مثل اختيار بعض الكلمات ودمجها في سياقات معينة ،ومن هذا النقد الحادثة التي تروى عن تفضيل النابغة الذبياني الأعشى على حسان بن ثابت عندما احتكما عنده فثار عليه وقال له والله أنا أشعر منك مستشهداً بقوله :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا أبنما

فقال له النابغة " إنك لشاعر لولا أنك قللت عدد أجفانك وفخرت بمن ولدت و لم تفخر بمن ولدك " [١] فمثل هذه الأحكام النقدية كانت تستند إلى علل تدخل في علم البلاغة وقد تكون الأحكام النقدية عامة لا ترتبط بأسباب بلاغية مصرح بها مثل الحادثة التي يرويها المرزباني عن تحاكم الزبرقان بن بدر وعمر بن الأهتم وعبده بن الطيب والمخبل السعدي ابن ربيعة بن خدار الأسدي في الشعر: أيهم أشعر ؟ فقال للزبرقان: أما أنت فشعرك كلحم أسخن لا هو أنضج فأكل ولا ترك نيئاً فينتفع به ، وأما أنت يا عمرو فإن شعرك كبرود حبر يتلألأ فيها البصر ، فكلما أعيد فيها النظر نقص البصر ، وأما أنت يا مخبل فإن شعرك قصر عن شعرهم وارتفع عن شعر غيرهم. أما أنت يا عبده فإن شعرك كمزادة احكم أخرزها فليس تقطر ولا تمطر [٢] فمثل هذين النموذجين نجد العديد من الشواهد التي ترسم لنا صورة النشأة الأولى للنقد والتي في الغالب تميل إلى التعميم والتعبير

عن الانطباع المجمل عن الشعر أو النص المنقود ، ولو أن بعضاً منها كان يعمد إلى التأويل الموجز دون التفصيل في التحليل والتعليل ولعل السبب في ذلك يعود إلى شفاهية الشعر آنذاك ، إذا أن الأدب الشفاهي لا يتيح للناقد أو من يحمل بحسب النقد فرصة التأمل والفحص ليتمكن فيما بعد من عملية التمييز والتفسير والتعليل والتحليل والتقييم وهي الخطوات التي يقوم بها الناقد [٣].

ولو عدنا للملاحظات التي وصلتنا عبر المصادر والتي عبر عنها الشعراء في العصر الجاهلي من خلال وقوفهم عند عملية اختيار المفردة والأسس التي تقوم عليها هذه العملية ، والمعاني التي عالجها الشعراء والصور البيانية التي زخرفوا بها قصائدهم وجدنا أن هذه الملاحظات تشكل البذرة الأولى لنشأة البلاغة العربية ، ومما يؤكد ذلك كثرة التشبيهات والاستعارات فضلاً عن الموازنات وألوان السجع في أشعارهم وهذا ما يدل على عنايتهم بفنون البلاغة وعلمهم بأهميتها في إيصال المعنى للسامع بصورة أوضح وتأثير أقوى [٤].

ومع ظهور الإسلام أخذ التطور الذي طرأ على البلاغة والنقد يزداد ويتنوع ففي النقد أخذت الأحكام تتأثر بالدين الجديد فكانت هناك بعض الآراء النقدية التي تستند إلى أسس دينية وأخلاقية ومما يروى في هذا المجال ، أن سحيم عبد بني الحسحاس أنشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله :

عميرة ودع إن تجهزت غازياً كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً

فقال عمر رضي الله عنه لو كنت قدمت الإسلام على الشيب لأجزتك [٥] ومن العوامل التي أدت إلى ازدهار النقد التطور الذي طرأ على البلاغة بعد أن بهرت بلاغة القرآن عقول الناس وذائقتهم فهذا الوليد بن المغيرة يقول عنه عندما سمع آيات منه (والله لقد سمعت من محمد كلاماً ، ما هو من كلام الأنس ولا من كلام الجن ، وأن له حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق) [٦] فكانت بلاغة القرآن وفصاحته الدافع الأول للنشأة الحقيقية للبلاغة التي تقوم على أسس ومبادئ ثابتة بعد أن كانت مجرد إشارات وانطباعات، وقد كان المعتزلة أول من بادر للبحث في أسرار الإعجاز القرآني بعد أن تحدى الله سبحانه وتعالى في كتابه العرب من الإتيان بسورة أو آية من مثله في قوله (قل فأتوا بعشر سور من مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) [٧].

ولما سلم العرب بعجزهم تصدى بعد ذلك عدد من علماء المعتزلة لمسألة الإعجاز القرآني وحاولوا الكشف عن أسرارها وقد كانت المحاولات الأولى بعيدة بعض الشيء عن البلاغة إلا أن المحاولات الأخيرة حققت النجاح المنتظر ، وكانت بوادر هذه الحركة قد بدأت في العصر الأموي بعد أن تطورت الحياة العقلية وبرز الجدل بين الأحزاب والفرق الدينية التي ظهرت في هذا العصر ، وفي العصر العباسي تطورت البلاغة أكثر وبدأت حركة التأليف تسجل مبادئ هذا العلم على شكل إشارات من خلال تحليل النصوص القرآنية والأدبية ويُرجع بعض الباحثين هذا التطور إلى الترجمة التي برزت في هذا العصر فأخذ العلماء المسلمون العديد من الأفكار والنظريات المطروحة لدى الأمم المجاورة ،مثل الفرس واليونان وبذلك ربط النجاح والتطور والرقي الذي وصلت إليه البلاغة بما أخذه العلماء وبشكل خاص المعتزلة من هذه الأمم [٨] ، ولكن على الرغم من أننا نسلم بأن هؤلاء العلماء قد أفادوا مما نقل من هذه الأمم إلا أن هذه الإفادة لم تكن الدافع الأقوى والرئيس في تطور البلاغة وكذلك النقد إذ كان القرآن الكريم وبشكل خاص فكرة الإعجاز وراء هذا التطور والازدهار.

ولعل أقدم ما وصلنا من مؤلفات تدلل أثر القرآن في بلورة المفاهيم البلاغية ، كتاب " معاني القرآن " للفراء (٢٠٧هـ) الذي تناول فيه بعض التراكيب القرآنية من خلال التأويل فضلاً عن تناوله الصور البيانية محللاً معانيها ، وعلى بساطة هذه الملاحظات إلا أنها مهدت السبيل أمام من جاء بعده ليطور هذه الملاحظات [٩] ويأتي كتاب " مجاز القرآن " لأبي عبيدة (٢١١هـ) المعاصر للفراء ليتضمن أول استخدام لمصطلح " المجاز " لكنه لم يكن يريد به المعنى الاصطلاحي الذي عرف فيما بعد بل أراد به تأويل المعنى ودلالته ، ولكن الكتاب لا يخلو من التحليلات التي حاول من خلالها المؤلف الوقوف عند أسرار القرآن البلاغية من حيث الترتيب ، وشرح المفردات ، إذ دفع هذا الشرح المؤلف لتوضيح بعض فنون البلاغة مثل التمثيل كما في تأويله لقوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم) [١٠] إذ يقول : " ثم انقطع النص فصار خبراً فارتفعت غشاوة " كأنها في التمثيل قال: (وعلى أبصارهم غشاوة) " أي غطاء " [١١] فعلى الرغم من أنه لم يشر للتمثيل بشكل صريح ولم يشرح مفهومه إلا أن الإشارة تعد نواةً لفهم فنون البلاغة من خلال الاحتكاك بالقرآن الكريم .

ومع ما فيها من إشارات إلى بعض فنوف البلاغة بقيت الجهود التي ذكرناها محدودة ولم تحدث طفرة كبيرة في تطور البلاغة إلا على يد المعتزلة وبتأثير مباشر من القرآن الكريم من خلال فكرة الإعجاز القرآني ، فبعد أن اختار الله سبحانه وتعالى لخاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم معجزة القرآن لبلوغ العرب في الجاهلية مرتبة رفيعة في البلاغة والفصاحة وهذا ما أكده الله عز وجل في كتابه (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام) [١٢] جاء القرآن تحدياً لأرباب الفصاحة والبلاغة الذين سرعان ما أعلنوا عجزهم عن مجاراته ، وبعد أكثر من قرنين من الزمن بعد أن نفذ القرآن في نفوس الناس وخلصهم من كثير من أمراض الجاهلية وفتح عقولهم على العلم والمعرفة واستثمار نعمة العقل التي أنعم الله بها على الناس ليتفكروا بما يحيط بهم وقف مجموعة من العلماء أعطوا العقل أهمية كبرى واحتكوا بالقرآن كثيراً وتعلموا منه أساليب الحوار والجدال فضلاً عن إطلاعهم على ما أنتجه الفرس واليونان من علوم منطقية وفلسفية ، فوقفوا عند فكرة الإعجاز وحاولوا تفسيرها والوقوف على أسرارها وهؤلاء هم المعتزلة الذين نوه بعلمهم الجاحظ (٢٥٥هـ) إذ يقول لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام واختطفت وسرقت ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون) [١٣] ولعل أول هؤلاء المعتزلة بشر بن المعتز (٢١٠هـ) الذي أورد الجاحظ بعض جهوده في كتابه " البيان والتبيين " وبشكل خاص صحيفته المشهورة [١٤] التي تتلخص في نصيحته للأديب بأن يكون مستعداً عند الشروع في كلامه لتنثال عليه المعاني والألفاظ دون تكلف ، كما على الأديب أن يتخير لفظه ويبتعد عن الغريب الوعر والتركيب المعقد وأخيراً يرى بشر بأن من يمتهد الأدب والكلام البليغ له ثلاث منازل الأولى البليغ التام الذي تتسم ألفاظه بعذوبتها وجزالتها وسهولتها ووضوح المعاني وانكشافها ، ويتناسب الوضوح طردياً مع طبيعة من يوجه إليهم الكلام أي أن يراعي المتكلم حال السامع أما المنزلة الثانية فهو من لا تسعفه طبائعه بالألفاظ الملائمة فيجد في ذلك صعوبة ، لذا عليه أن يتأنى لأن طبائعه لا تسمح له بالكلام من أول وهلة أما النزلة الثالثة فهو من شحت طبائعه ونضبت ينابيع القول في نفوسهم ، فهم مهما تأنوا ومهما جهدوا لا يستطيعون صناعة الكلام فعليهم مغادرة الأدب ويتحولوا إلى صناعة أخرى ، ويؤكد بشر من خلال هذه الصحيفة على قضايا تكاد تكون من أوليات النقد الحديث مثل مراعاة حال المتلقي وملاءمة الألفاظ مع المعاني وقد أرجع بعض الباحثين الفهم الراقي للبلاغة عند بشر أي مدى

استغلال المعتزلة لملاحظات الأجانب في البلاغة وفات عليه أن هذا الذي جاء به المعتزلة كان نتيجة لاحتكاكهم الكبير بالقرآن الكريم فلم يأتوا بالجديد فالقرآن الكريم فيه موازنة تامة بين معانيه وأحوال الناس الذين خاطبهم على اختلاف أحوالهم وفيه أيضاً موازنة بين الألفاظ والمعاني.

وعلى الرغم من وجود عدد من المتكلمين والمعتزلة ممن أسهموا في تطوير البلاغة والنقد ممن ذكرهم الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) إلا أن الجاحظ يمثل طفرة مميزة بينهم، ليس لأن مؤلفاته قد وصلت إلينا بل لأنه أفاد ممن سبقوه فامتلك ثقافة واسعة وقدرة عالية في استيعاب الطروحات وتوجيهها في السياق الذي خدمه في بلورة معالم البلاغة لذا عده بعض الباحثين المؤسس الأول للبلاغة العربية وذلك من خلال تخصيصه كتاب (البيان والتبيين) له وعرضه لملاحظات معاصريه عنها فضلاً عن عرضه لبعض ما روي عن الأمم الأخرى مثل الفرس والهند عنها ، وقد حاول أن يطبق هذه المفاهيم على القرآن الكريم من خلال تحليل بعض الآيات القرآنية وبيان ما فيها من صور بيانية قائمة على التشبيه والاستعارة والمجاز وليس من شك في أن اهتمامه بالبلاغة جاء من خلال احتكاكه بالقرآن الكريم وانشغاله واهتمامه بفكرة الإعجاز التي لم يتابع فيها أستاذه النظام الذي ارجع الإعجاز إلى الصرفة أي أن الله عز وجل قد صرف العرب عن مجاراة القرآن وتحديه إذ يرى الجاحظ بأن إعجاز القرآن يعود إلى نظمه و ألف كتاباً في هذا الباب تحت عنوان " نظم القرآن " وقد أشار إليه في كتابه " الحيوان " [١٥] ومما يدلل على أن فكرة الإعجاز قد أسهمت في توضيح مفاهيم الفنون البلاغية للجاحظ أن تأليفه لهذا الكتاب قد سبق تطبيقاته القرآنية في كتاب "الحيوان"، ومن خلال مراجعة ما قدمه الجاحظ في مؤلفاته وبشكل خاص " البيان والتبيين " نرى بأن النقد لم يكن بعيداً عن هذا التطور الذي طرأ على البلاغة بتأثير فكرة الإعجاز وهذا ما جعل بع الباحثين يقرر أن النقد ولد في حضن الاعتزال (الجاحظ ، بشر بن المعتمر) ومن تأثر بهم [١٦] ، و أرجع السبب في ذلك إلى احتكامهم إلى العقل وهذا برأينا لا يكفي فالقرآن الكريم الذي يمثل الأسلوب المثالي قد جعل كثيرا من العلماء يقيسون جودة الكلام والأدب بالرجوع إليه ، ويدلهم الجمال الفني الذي يتسم به على مواطن الجمال في النصوص الأدبية.

وعلى الرغم من أن النقد لم يوظف لخدمة فكرة الإعجاز التي أوجدت البلاغة لتصبح دليلاً عليها ، لكنه (أي النقد) قد تأثر بالإعجاز القرآني كتحصيل حاصل لتأثر

البلاغة بهذا الإعجاز ، فالرماني (٣٨٦هـ) يتأثر بالإعجاز القرآني فيقسم الأسلوب على ثلاثة مراتب ، عالية ووسط ودنيا فالعليا أراد بها البلاغة المعجزة وهي بلاغة القرآن أما ما دون ذلك أي الوسطى فهي بلاغة البلغاء [١٧] ويرجع أحد الباحثين هذا التقسيم إلى تاثر الرماني بالمنطق اليوناني [١٨] والقضية لا تحتاج هذا التأثر فالأسلوب القرآني هو الأعلى لأنه معجز على البلغاء الذين تحداهم الله سبحانه وتعالى في القرآن وبلغاء الأمة يمثلون الطبقة الوسطى بينما يمثل كلامه عامة الناس الطبقة الدنيا ، ويتطرق الرماني لفكرة الإعجاز القرآني فيعللها بالنظم ويقول: " وظهور الإعجاز في الوجوه التي نبينها يكون باجتماع أمر يظهر بها للنفس أن الكلام من البلاغة في أعلى طبقة " [١٩] ويحاول الرماني إجراء مقارنة بين بعض صور القرآن في بعض فنون البلاغة مع كلام البلغاء ومن خلال هذه المقارنة يبرز جهده النقدي وأثر فكرة الإعجاز في تطوير هذا الجهد .

وقد تابع أبو سليمان الحطابي (٣٨٨هـ) الرماني في تقسيماته لبلاغة الكلام وذلك في رسالته (بيان إعجاز القرآن) لكنه خالفه في بلاغة القرآن إذ لم تقتصر على النوع الأول وحده بل يرى بأن الأنواع الثلاثة تشترك في تشكيل بلاغة القرآن ، كما أن الخطابي أشار إلى الأثر النفسي للقرآن مثلما أشار إليه من قبله الرماني إذ يقول : " في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم ، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس ، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له القلب من اللذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه ... " [٢٠] ويشير إلى تنوع هذا الأثر بالاستناد إلى طريقة الائتلاف بين المعنى واللفظ والرباط الناظم ، ومن خلال هذه الطورحات نلاحظ كيف أن الإعجاز القرآني كان له الأثر الأكبر في بلورة البلاغة العربية ومن ثم النقد خدمة للقرآن بالدرجة الأولى ومن ثم الأدب الإسلامي.

ولعل أبرز الذين استثمروا فكرة الإعجاز في بلورة النظرية النقدية هو الباقلاني (٤٠٦هـ) الذي كان الوحيد الذي نجح في استيعاب الجهود البلاغية والنقدية السابقة ، وأفاد منها في أثناء معالجته لقضية الإعجاز القرآني في تطوير بعض مبادئ النقد ، وقد رفض الباقلاني أن يكون الإعجاز القرآني راجعا إلى ما تضمنه القرآن من بديع وهو ما ذكره الرماني إذ يقول: " وقد قدر مقدرون أنه يمكن استفادة الاستدلال به عليه ، وليس كذلك

عندنا لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود والتصنع لها ، وذلك كالشعر الذي إذا عرف الإنسان طريقه صح منه التعمل له وأمكنه نظمه ، والوجوه التي تقول أن إعجاز القرآن يمكن أن يعلم منها ، فليس مما يقدر البشر على التصنع له والتوصل إليه بحال " [٢١] فهو يرفض أن يرجع الإعجاز إلى البديع وحده لأنه شيء يمكن التمكن منه ولكن قد يكون البديع عنصرا من عناصر الاعجاز ، وقد أفاد من فكرة التفاوت بين قصائد الشاعر الواحد وتفاوت الشعراء فيما بينهم ليضيف هذه الفكرة إلى فكرة النظم التي يراها غير كافية إذ يقول: " إن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام ، وإعذار وإنذار ، ووعد ووعيد ، وتبشير وتخويف ، وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة وسير مأثورة وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها ، ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق والخطيب المصنع يختلف على حساب اختلاف هذه الأمور فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجاء ومنهم يبرز في الهجاء دون المدح ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين " [٢٢] فهذه الإفادة من فكرة التفاوت قد حققت أمرين لدى الباقلاني الأول: إثبات الإعجاز القرآني ودحض الآراء التي شككت فيه ،والثاني تطوير القدرة النقدية لديه وفتح آفاق جديدة في النقد تقوم على التحليل والمقارنة التي من شأنها أن تساعد الناقد في التمييز بين أسلوب شاعر معين عن آخر .

ولإثبات الإعجاز بشكل كامل يذهب الباقلاني إلى أن كلام العرب لا يخرج عن الشعر بجميع أنواعه والكلام الموزون غير المقفي والكلام المعدل المسجع والكلام المعدل الموزون غير المسجع والكلام المرسل. ويرى أن القرآن خارج عن هذا الوجود ومباين لهذه الطرق فهو معجز وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن وتميز حاصل في جميعه ولا يكتفي بهذا الطرح بل يجري مقارنة بين أعلى ما وصلت إليه البلاغة العربية وهو الشعر ويختار أبرز شعراء العرب وهو أمرؤ القيس ويختار من شعره معلقته المشهورة ويبدأ بتحليلها وبيان ضعفها أمام الأسلوب القرآني ، بعد أن عرض نماذج من النثر العربي أمام القرآن إذ يقول في مطلع تحليله لقصيدة أمرئ القيس " ونظم القرآن جنس مميز وأسلوب متخصص فإذا شئت أن تعرف عظم شأنه فتأمل ما نقول في هذا الفصل لامرئ القيس في أجود أشعاره وما نبين لك من عواره على التفصيل إذ يقول في مطلع المعلقة :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول وفحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل

الذين يتعصبون له أو يدعون محاسن الشعر يقولون هذا من البديع لأنه وقف واستوقف وبكى واشتكى وذكر العهد والمنزل والحبيب وتوجع واستوجع كله في بيت ونحو ذلك وإنما بينا هذا لئلا يقع لك ذهابنا عن مواضع المحاسن إن كانت ولا غفلتنا عن مواضع الصناعة إن وجدت ، تأمل أرشدك الله وانظر هداك الله أنت تعلم أنه ليس في البيتين شيء قد سبق ميدانه شاعر ولا تقدم به صانعاً وفي لفظه ومعناه خلل [٢٣] ويبدأ بالتحليل والتعليل وعلى الرغم من أن الباقلاني قد أصدر الحكم مقدماً بضعف القصيدة أمام القرآن إلا أنه لم يترك ما فيها من محاسن فضلاً عن منهجه التحليلي الذي رافقه التأويل والتعليل ليسهم بذلك في إرساء النقد التطبيقي الذي تطور كثيراً فيما بعد عند الجرجاني.

وبعد انتهائه من تحليل القصيدة يقول: "وقد بينا لك أن هذه القصيدة ونظرائها تتفاوت في أبياتها تفاوتاً بيناً في الجودة والرداءة والسلاسة والانعقاد والسلامة والانحلال والتمكن والتسهيل والاسترسال والتوحش " [٢٤] وينتقل بعد ذلك للحديث عن القرآن الكريم ووصف أسلوبه وتراكيبه ومعانيه وألفاظه إذ يقول: " فأما نهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه فإن العقول تتيه في جهته وتحار في بحره وتضل دون وصفه ونحن في تفصيل ما تستدل به على الغرض وتستولي به على الأمد ، وتضل به إلى المقصد وتتصور إعجازه كما تتصور الشمس وتتيقن تناهي بلاغته كما تتيقن الفجر " [٢٥] ويلاحظ من خلال الجهود التي قام بها العلماء للوصول إلى أسرار الإعجاز القرآني أنها قد قادتهم لرسم مناهج نقدية أسهمت في مجموعها في تأسيس نظرية نقدية عربية أخذت تتطور وتتسع من خلال إضافات وإبداعات عدد من النقاد البلاغيين في العصور اللاحقة وبشكل خاص القرن الخامس الهجري .

وآخر علماء القرن الرابع الهجري الذي كانت له جهود تتمثل في تجميع الآراء المطروحة قبله وتبويبها وشرحها هو أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ) صاحب (كتاب الصناعتين) الذي ألفه تحت تأثير فكرة الإعجاز ، وفي هذا الكتاب تتضح بشكل كبير عملية التداخل والتلازم بين البلاغة والنقد ، وقد صرح العسكري في المقدمة عن العلاقة بين البلاغة والإعجاز " إذ يقول إن أحق العلوم بالتعليم وأولاها بالتحفظ – بعد المعرفة بالله جل ثناؤه – علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى " [٢٦] ومن هذا

القول يتبين أن العسكري يؤكد أثر فكرة الإعجاز في تطور البلاغة وازدهارها ، إذ يرى بأن الناس عليهم أن يتعلموا البلاغة ليمتلكوا الذوق السليم والفهم الصحيح الذي يساعدهم في إدراك الإعجاز الذين يكمن – عنده – في حسن التأليف وبراعة التركيب ويعد أيضاً البديع والصور البيانية وسيلة للكشف عند حسن النظم والتأليف .

وبجهد العسكري لاحظنا كيف أسهمت فكرة الإعجاز في إرساء فن البلاغة وتطوره وتشعبه فضلاً عن تحديد العديد من المفاهيم الخاصة بفنون البلاغة التي أصبحت أداةً بيد العديد من النقاد للكشف عن جماليات النص الأدبي مثل ابن قتيبة والآمدي وابن سنان الخفاجي وغيرهم (٢٧) .

عصر التكامل بين البلاغة والنقد :

يعد القرن الخامس الهجري عصر التكامل والتلازم بين البلاغة والنقد ، وذلك من خلال ما قدمه عبده القاهر الجرجاني في كتابه الرائع " دلائل الإعجاز " فعنوان الكتاب وأسباب تأليفه التي يعرضها الجرجاني في الكتاب تبين التأثير الكبير لفكرة الإعجاز القرآني في بلورة فنون البلاغة ووضوح معالم نظرية النقد العربي وتطورها ، فعلى الرغم من أن القرون التي سبقت القرن الخامس شهدت العديد من الدراسات التي دارت حول فكرة الإعجاز والتي قام بها العديد من العلماء الذين نجحوا إلى حد ما في فك بعض أسرار الإعجاز إلا أن هذه الجهود لم ترق للمستوى الذي وصل إليه الجرجاني العالم الذي بدأ رحلته من النحو ووظف معلوماته وثقافته النحوية في تثبيت المفاهيم البلاغية من خلال دراسة دلالة الجملة ودور القواعد النحوية في تحديدها ، والتي نتج عنها نظريته المشهورة بـ " النظم ".

وفي مقدمة كتاب (دلائل الإعجاز) يظهر أثر الإعجاز القرآني في تنمية عقل المؤلف وإرشاده إلى أسرار الجمال ومواطن الرقي في التعبير إذ يصرح المؤلف بأن الرد على من يشكك بالقرآن الكريم وبيان الإعجاز كان الدافع الرئيسي وراء تأليف هذا الكتاب يقول : " فما جوابنا لخصم يقول لنا: إذا كانت هذه الأمور وهذه الوجوه من التعلق التي هي محصول النظم موجودة على حقائقها وعلى الصحة وكما ينبغي في منثور كلام العرب ومنظومه ، ورأيناهم قد استعلموها وتصرفوا فيها وكملوا بمعرفتها وكانت حقائق لا تبدل ولا يختلف بها الحال ، إذ لا يكون للاسم بكونه خبراً لمبتدأ

أو صفة لموصوف أو حالاً لذي حال أو فاعلاً أو مفعولاً لفعل في كلام حقيقة هي خلاف لحقيقة في كلام آخر ، فما هذا الذي يتجدد بالقرآن من عظيم المزية وباهر الفضل ، العجيب من الوصف حتى أعجز الخلق قاطبة ، وحتى قهر من البلغاء والفصحاء القُوى والقدر ، وقيد الخواطر والفكر ، حتى خرست الشقائق ، وعدم نطق الناطق ، وحتى لم يجر لسان ولم يبين بيان ، ولم يساعد إمكان ، ولم ينقدح لأحد منهم زند ، ولم يمض له حد ، وحتى أسال الوادي عليهم عجزاً ، وأخذ منافذ القول عليهم أخذاً ، أيلزمنا أن نجيب هذا الخصم عن سؤاله ، ونرده عن ظلاله ، وأن نطلب لدائه ونزيل الفساد عن رأيه ؟ فإن كان ذلك يلزمنا ، فينبغي لكل ذي دين وعقل أن ينظر في الكتاب الذي وضعناه ويستقصي التأمل لما أودعناه ، فإن علم أنه الطريق إلى البيان ، الكشف عن الحجة والبرهان تبع الحق وأخذ به ، وإلا رأى أن له طريقاً غيره أومأ لنا إليه ، ودلنا عليه ، وهيهات ذلك " [٢٨] إذ يشير الجرجاني هنا إلى أن كتابه سوف يكون رداً على كل من يحاول التشكيك بالإعجاز ويقلل من بلاغة القرآن وهو في الأخير يعيد التحدي الذي طالما تكرر في القرآن الكريم ، وقد نفى أن يكون الإعجاز بالصرفة أو راجع إلى البديع وحده أو الألفاظ وحدها إذ يقول: " فإذا بطل أن يكون الوصف الذي أعجزهم من القرآن في شيء مما عددناه لم يبق إلا أن يكون الاستعارة ، ولا يمكن أن تجعل الاستعارة الأصل في الإعجاز وان يقصد إليها ، لأن ذلك يؤدي إلى أن الإعجاز في أي معدودة ، في مواضع من السور الطوال مخصوصة وإذا امتنع ذلك فيها لم يبق إلا أن يكون في النظم والتأليف لأنه ليس بعد أن أبطلنا أن يكون فيه إلا النظم ، وإذا ثبت أنه في النظم والتأليف وكنا قد علمنا أن ليس النظم شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم " [٢٩] ولما كان الإعجاز صفة القرآن التي لم تكون موجودة قبله رفض الجرجاني أن يكون الإعجاز في الكلم المفرد لأنها موجودة قبل نزول القرآن.

ويتضح مما تقدم أن الجرجاني رد الإعجاز القرآني إلى الخصائص الأسلوبية التي امتلكها وتفرد بها القرآن الكريم ، والتي أكسبته جمال اللفظ والمعنى معاً ، وهذه الخصائص بقيت واحدة في جميع الآيات وهذا ما أكد عليه الباقلاني من قبل عند عرضه لفكرة التفاوت الذي أقر بعدم وجوده في القرآن ، ويفصل الجرجاني في قضية الإعجاز في مثال آخر فيقول " فقيل لنا: قد سمعنا ما قلتم فخبرونا عنهم عن ماذا عجزوا ؟ أعن معان من دقة معانيه وحسنها وصحتها في العقول أم عن ألفاظ مثل ألفاظه ؟ فإن قلتم عن ألفاظ . فماذا أعجزهم

من اللفظ ؟ أم ماذا بهرهم منه ؟ فقلنا: أعجزهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ومجاري ألفاظها ، ومواقعها وفي مضرب كل مثل ومساق كل خبر ، وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام وتذكير وترغيب وترهيب ، ومع كل حجة وبرهان وصفة وتبيان ، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة وعشراً عشراً وآية آية ، فلم يجدوا كلمة ينبو بها مكانها ، ولفظة ينكر شأنها أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه ، أو أحرى أو أخلق ، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول وأعجز الجمهور ونظاماً والتئاماً ، واتقاناً وإحكاماً لم يدع في نفس بليغ منهم – ولو حك بيافخة السماء – موضع طمع حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول وخلدت القروم ، فلم تملك أن تصول " [٣٠] فهذا الكلام يدل على أن الجرجاني حاول ومن خلال التحليل أن يبين أسرار الإعجاز و لم يكتف بالأحكام العامة المطلقة، كما يتضح أن انشغاله بالإعجاز قد فتح أمامه المجال لوضع أسس ومبادئ الفنون البلاغية التي استقرت من خلال جهوده ، والتي أثمر عنها وضعه لنظريتي علمي المعاني في كتاب دلائل الإعجاز وسيلة لإرساء قواعد البلاغة بطريقة لم يسبقه إليها أحد من قبل كما أنه اتخذها أو أفاد منها في طرح العديد من النظريات النقدية بأدوات جديدة تستند بشكل واسع على التحليل والتعليل والتأويل فاستطاع أن ينفذ إلى عمق النص وأن يكشف عن مقوماته الجمالية ، ويرسم ملامح الطرق التي توصل لهذه المقومات .

نظرية النظم :

على الرغم من أن الجاحظ كان أول من استخدم مصطلح النظم وعلل به إعجاز القرآن إلا أن هذا المصطلح شاع عند الأشاعرة ، وبشكل خاص الجرجاني الذي استوعب الجهود التي سبقته حول فكرة الإعجاز فأعاد طرح فكرة النظم بعد أن ناقشها مناقشة واعية وحاول التفصيل في أقسامها فوضع من خلالها نظريتي علمي المعاني والبيان ، ومن هنا كان له في قضية النظم فضل التنظير والتفصيل والتطبيق ، وقد مهد لهذه النظرية ووضع الأركان التي تقوم عليها ، فبعد أن رأى العلماء بعضهم يرجع الفصاحة إلى اللفظ وبعضهم الآخر يرجعها إلى المعنى ، استجمع قدراته التي اكتسبها من القرآن الكريم ووظف مهاراته في الحجاج والمجادلة والقدرة على الاقتناع ، ورد على الذين يرجعون الفصاحة إلى تلاؤم

الحروف في الألفاظ ويجعلون ذلك سر الإعجاز ، معللاً ذلك بأنه يؤدي إلى نظم الألفاظ إلى وجه لا تقصد به الفائدة ، كما رفض أن يكون الإعجاز في الكلم المفردة كما ذكرنا مسبقاً وقد رد الجرجاني على من يرجع الإعجاز إلى المعاني المحمولة في الألفاظ ، ويشرح النظم بقوله: " اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها ، وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه " [٣١]. ومن خلال هذه النظرية استطاع الجرجاني حل إشكالية العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى حلاً جوهرياً من خلال التعليق الذي تستند إليه النظرية وقد وطد أركان هذه النظرية وجعلها منهجاً صالحاً للتطبيع في دراسة علمي المعاني والبيان ، وأظهر هذا العالم الحسن النقدي والإبداعي الذي لم يجعله يقف عند ملامح هذه العلاقة ووصفها تقريباً كما فعل قبله القدامى ، بل حاول النفاذ إلى جوهرها ذاكراً أسبابها ومعطياتها بعقل تحليلي منهجي مستفيداً من معطيات القرآن الكريم في هذا الباب من خلال أسلوبه المعجز الذي تتشكل فيه العلاقات المثالية بين الألفاظ والمعاني وتبرز ملامح وأسس هذه العلاقة في تحليلات الجرجاني الذي استطاع أن يصل إليها ويسجلها لتصبح فيما بعد قواعد ثابتة يستثمرها الناقد للوصول إلى مايمتلكه النص من قيم جمالية ومايمتلكه المبدع من قدرات مميزه جعلته يستثمر هذه العلاقة بشكل جيد ومدروس .

وتأتي أهمية نظرية النظم التي خرج بها الجرجاني من خلال دراسته لفكرة الإعجاز القرآني من كونها تمثل الأساس الذي بني عليه نظريتي علمي المعاني في "دلائل الإعجاز" والبيان في " أسرار البلاغة " وبذلك تعد هذه النظرية صورة للتطور والازدهار الذي وصلت إليه البلاغة في هذا القرن والذي امتد ليشمل النقد أيضاً [٣٢] ، وعودة لهذه النظرية نجد أن الإعجاز القرآني كان له الأثر الأكبر في إظهارها للوجود فبعد أن تبين للجرجاني أن الإعجاز لم يكن قائماً في الألفاظ التي هي أوضاع اللغة ، أو في مقاطع الكلمات وفواصلها ، أو في معاني الكلم المفردة أو في تركيب الحركات والسكنات ، أو في غياب الحروف الثقيلة على اللسان أو في وفرة الاستعارات ورقيها ، أقر أن القرآن معجز بنفسه أي في نظمه وتأليفه ، وخلال إبطاله لما سبق وشرحه لنظرية النظم ودراسة جميع جوانبها بدءاً من الإسناد إذ درس المسند والمسند إليه وطبيعة كل منها من حذف وذكر وفصل ووصل وتقديم وتأخير وقصر

وغير ذلك من فنون علم المعاني التي نجدها في " دلائل الإعجاز " والتي استطاع من خلالها جعل النحو وسيلة من وسائل التصوير والصياغة كما استخدمه في الكشف عن الإبداع في الأدب وإبراز قيمته ، وهذه القدرة في الكشف عن مقومات النظم يرجعها شوقي ضيف إلى اطلاع وتأثر الجرجاني بأرسطو إذ يقول " ونؤمن بأنه استلهم في ذلك كلام أرسطو في الخطابة عن الفقر ومراعاة الروابط وتداخل الكلام بعضه ببعض [٣٣] ، وهذا غير صحيح إذ كان الأثر الأول للقرآن الكريم وعلى الرغم من أن فكرة النظم قديمة في الدراسات اللغوية والبلاغية وتبدأ جذورها بأرسطو ومروراً بالعلماء والمسلمين والعرب إلا أنها لم تكن بالصورة التي قدمها الجرجاني وهذا دليل على أن القرآن كان له الأثر الأكبر في إخراج هذه النظرية بهذه الصورة وذلك لتعايش الجرجاني مع القرآن الكريم بأساليبه وألفاظه ومعانيه واستيعابه للجهود التي سبقته في فهم أسرار الإعجاز ونحن في كلامنا هذا لا ننفي اطلاع الجرجاني وغيره من علماء البلاغة على جهود اليونان والفرس في هذا المجال بعد أن اتسعت دائرة الترجمة وازدهت الحضارة الإسلامية واستوعب الإرث الحضاري للأمم المجاورة والذي من شأنه أن يغني الفكر الإسلامي ، لكن أن نرجع إبداع علمائنا للأمم الأخرى ونجعلهم أشبه بالناقلين هذا مردود وهو ما يذهب إليه عدد من الكتاب والنقاد المحدثين الذين يؤمنون بالمركزية الأوروبية ويهملون ما يقدمه العلماء المسلمون من إبداعات في شتى المجالات.

إذن وبعد هذا العرض الموجز لأهم ما جاءت به نظرية النظم نستطيع أن نقرر بأنها كانت السبب الرئيسي إن لم يكن الوحيد الذي أسهم في بلورة الفنون البلاغية وتقنينها في مصطلحات خاصة بها بعد أن فصل الجرجان من خلالها بالأقسام والفنون التي تقوم عليها البلاغة وقد رافق هذا التقسيم التحليل المنهجي الفني للعديد من الآيات القرآنية باعتبارها المثال الذي يقتدي به المبدعون فضلاً عن النصوص الشعرية والنثرية التي حاول من خلالها تفسير وتوضيح المفاهيم التي يطرحها وتأويلاته وتعليلاته التي تعكس الذائقة النقدية التي امتلكها من خلال احتكاكه المستمر والمباشر مع القرآن .

الجرجاني ومناهج النقد الحديثة :

إذا كنا قد ركزنا في حديثنا عن نظرية النظم وأثر الإعجاز في إيجادها على شخصية الجرجاني البلاغية فإن هذا لا يعني أنه كان بلاغياً فحسب فقبل ذلك كان عالماً نحوياً وبعد أن أبدع في البلاغة بتأثير القرآن أصبح ناقداً مبدعاً ، إذ استطاع أن يرسم لنفسه منهجاً

نقدياً متكاملاً وضع لمساته الأخيرة من خلال تطبيقاته الواسعة ، فبعد أن قرر بأن معرفة الإعجاز القرآني لا تتم إلا بمعرفة الشعر العربي ، وما يمتلكه من سمات جمالية عالية جعلته ديواناً لهم ، وهو الأسلوب الذي اتبعه الباقلاني لإثبات الإعجاز القرآني وبيان جمالية الشعر العربي وانتقل ليبين أهمية ودور النظم في ذلك ، إذ يقول في تحليله لقوله تعالى (واشتعل الرأس شيباً) [٣٤] بأن جميع من ذكروا الآية نسبوا الشرف فيها للاستعارة دون غيرها أما هو فيرى أن المزية ليست في الاستعارة وحدها ولكن لأن يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء وهو لما هو من سببه ، فيرفع به ما يسند إليه ويؤتي بالذي الفعل له في المعنى منصوباً بعده مبيناً أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأول إنما كان من أجل هذا الثاني وكما بينه وبينه من الاتصال والملابسة [٣٥] أي أن شرف هذه الآية جاء من إسناد الفعل (اشتعل) للـ "رأس" إذ أفاد هذا الإسناد مع لمعان الشيب في الرأس الشمول ، أي أنه شاع فيه وأخذه من نواحيه واستقر به ، وعم جملته فلم يبق من السواد شيء ولم يبق منه إلا ما يتحدد به ، وهذا ما لا يكون إذا قيل " اشتعل شيب الرأس " ولا الشيب في الرأس " ويأتي الجرجاني بآية أخرى شبيهة من حيث النظم بهذه الآية وهي قوله تعالى (وفجرنا الأرض عيوناً) [٣٦] ويحللها على غرار الأولى ، والملاحظ على هاتين الآيتين أن المضاف إليه " الرأس " و " الأرض " قدم على المضاف (شبيب) و (عيون) فالأصل فيهما (شيب الرأس) و(عيون الأرض) ويأتي تحليل الجرجاني لهذه الآيات ليبسط من خلاله " نظرية النظم " ويبين أهميتها من جهة وليؤكد المنهج النقدي التحليلي الذي اختاره من جهة أخرى ولم يكتنف بالتقديم والتأخير والإسناد بل وقف أيضاً عند التعريف دون غيره وبعد هذا التحليل لبعض الآيات القرآنية ينتقل إلى تحليل الشعر واقفاً عند بعض الأبيات التي يؤدي النظم دوراً مهماً في إيصال المعنى ولم يكن تحليله استناداً للقاعدة النحوية ، بل استناداً للحالة الانفعالية التي تعبر عنها الجملة ، إذ يؤكد أن استقامة الجملة نحوياً لا يعني بالضرورة حسنها ، فالتفاضل بين الجمل يرجع إلى نظام الألفاظ الذي تحكم فيه الانفعال الذي تعبر عنه الجملة وهذا ما يؤكد النظرة الجمالية التي كان يمتلكها فضلاً عما توصل إليه من نتائج بخصوص جمالية العبارة وصلتها بالمعاني العميقة ، وبذلك يكون قد سبق كثيراً من علماء اللغة والدلالة وبشكل خاص " فندريس " فصحة الإعراب لا تكفي لجمال الجملة لأن الكلام مرتبط بترتيب الألفاظ الذي يتبع ترتيب المعاني النفسية وهذا ما جعل الجرجاني لا يفاضل بين اللفظ

والمعنى ليقر ما أقره النقاد الجماليون بأن التعبير انفعال [٣٧] ، وإذ ما تتبعنا خطواته التحليلية فإننا سنلاحظ بأنه استطاع أن يرسم منهجاً نقدياً متكاملاً لا يختلف في كثير من خطواته عن الأسلوبية التي ظهرت في العصر الحديث ، فقد سبق الجرجاني كل من (سبنسر وبالي وريفاريتر) [٣٨] في مجال تحليل النص الأدبي مع خلال توظيفه لعلم اللغة في تحليلاته فضلاً عن تأكيده على الذوق و لم ينس المتلقي ودوره في العملية الإبداعية ، وهذه العناصر هي الأسس التي تقوم عليها الأسلوبية فضلاً عن فنون البلاغة التي كان له دور مهم في إرساء مفاهيمها التامة وتوظيفها في نقد النص ، كما أنه لم يهمل محاور النص " محور الاختيار ومحور التركيب " السياق" من خلال دراسة تركيب الجملةو ما يضفيه السياق للمفردة من قدرات تجعلها أكثر تأثيراً في الملتقى " فالنظم والترتيب في الكلام كما بينا عمل يعمله مؤلف الكلام في معاني الكلم لا في ألفاظها وهو بما يصنع في سبيل من يأخذ الإصباغ المختلفة فيتوخى فيها ترتيباً يحدث عنه ضروب من النقش الوشي " [٣٩] والنظم الذي قصده الجرجاني هو التراكيب التي استخدمها الغربيون [٤٠] وفي كلامه هذا يرسم ملامح أسلوبيته التي اتخذها منهجاً نقدياً متكاملاً حلل بها الآيات القرآنية والنصوص الشعرية .

و لم تكن آراء الجرجاني مجرد انطباعات سريعة بل كانت نابعة عن فهم ودراية واسعة تعكس فلسفة خاصة ، خرج بها من خلال تماسه المباشر بالقرآن الكريم بغية الوقوف عند أسرار إعجازه ، وهذا التماس أوصله إلى أن المهم في اللغة ليس الألفاظ بل العلاقات التي تربط بين هذه الألفاظ وهذه العلاقات بمثابة القوالب للمعاني التي يحملها المتكلم نفسه ولتأكيد هذه الحقيقة يعمد إلى تحليل أبيات للبحتري يقول فيها :

بلونا ضرائب من قد نرى ... فما إن رأينا لفتح ضريبا
هو المر أبدت له الحادثا ... ت عزماً وشكياً ورأياً صليبا
تنقل في خلقي سؤدد ... سماحاً مرجى وبأساً مهيبا
فكالسيف إن جئته صارخاً ... وكالبحر إن جئته مستثيبا

إذ يعلل جودة هذه الأبيات واهتزاز نفس المتلقي عند قراءتها بالتقديم والتأخير والتعريف والتذكير والحذف والإضمار والإعادة والتكرار والأخذ بنظر الاعتبار قواعد النحو

يصح فإن قلت هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً في معنى الاستبدال فما معنى ذكر الربح والتجارة كأن ثمة مبايعة على الحقيقة قلت هذا من الصنعة البديعية ،التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ثم تقفى بأشكال لها وأخوات إذا تلاحقن لم تر كلاماً أحسن منه ديباجة وأكثر ماء ورونقاً وهو المجاز المرشح نحو قول الشاعر :

ولما رأيت النسر عز ابن دأية وعشش في وكريه جاش له صدري

لما شبه الشيب بالنسر والشعر الفاحم بالغراب أتبعه ذكر التعشيش والكر[٤٥]

إذ يدلل هذا التحليل قدرة الزمخشري في الوقوف على جماليات النص من جهة وتوضيح وبيان مفاهيم المصطلحات البلاغية وما أضافه من مصطلحات من جهة أخرى ، فضلاً عن أن هذه الإضافات تؤكد أن القرآن يكشف لمن يمتلك عقلاً واعياً ورغبةً حقيقية عن كثير من أسرار البلاغة بشرط أن يتعايش معه ويدقق في قراءته لآياته ويغوص في معانيها ودلالاتها أسراره ، وفي تفسير الكشاف يتضح بشكل كبير أثر القرآن في فتح آفاق العلم أما العلماء وبشكل خاص البلاغة إذا اكتملت بجهود الزمخشري أسس ومبادئ البلاغة وتحددت مفاهيم الفنون البلاغية وأقسامها وأدواتها والدور الذي تؤديه هذه الفنون في رسم جمالية تؤثر في الملتقى من خلال إيصالها المعنى بطريقة مؤثرة ، أما عن النقد فإن الزمخشري على الرغم من عدم ممارسته النقد وجعل جهده خاصاً بالقرآن إلا أنه اسهم في تطوير النقد من خلال تأسيس منهج في التعامل مع النص بشكل كامل وهذا ما تحقق في تفسيره ، وقد أفاد من القرآن في رسم هذا المنهج وتعد أدواته التي وظفها في الكشف عن جماليات النص القرآني صورة راقية لما وصل إليه التحليل البلاغي والنقدي .

وبجهد الجرجاني والزمخشري تكون البلاغة قد وصلت إلى قمة التطور والازدهار إذ اكتملت نظريات البلاغة وبشكل خاص نظريتي المعاني والبيان وإلى حد ما البديع ، فلم يضف من جاء بعدهم شيئاً على فنونها وأقسامها ووظائفها ، بل أفرغوها من روحها التي كانت تحيا بها في أعمال الجرجاني والزمخشري ، وقد تبع تطور البلاغة تطوراً كبيراً في النقد حتى أنه حقق قفزة كبيرة سبقت عصره فتأسست بذلك نظرية النقد العربية التي لم يتصدى لها نقاد ليتمكنوا من تقنينها في مصطلحات تلائم العصر ، فأسهم الإهمال بحق جهود الجرجاني في تراجع النقد العربي فيما بعد ليصبح العرب مستوردين لنظريات النقد من الغرب و التي لم تأت بجديد عما أتى به النقاد المسلمون بفضل القرآن وبشكل خاص فكرة

الإعجاز ومحاولتهم الكشف عن أسرارها وبيان روعة الجمال الفني الذي تفرد بـه القـرآن الكريم .

عصـر التدهـور والجمـود :

على الرغم من أن جهد السكاكي يعد البداية الحقيقية لعص التدهور والجمود الذي مرت وتمر به الآن البلاغة العربية ، وكذلك النقد لارتباطه وتلازمه من حيث النشأة والتطور مع البلاغة ، إلا أن فخرالدين الرازي (٦٠٦هـ) كان قد سبق السكاكي إلى هذا الجمـود في كتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) وقد لاحظنا عند تعرضنا لجهود البلاغيين والنقاد في القرون التي سبق القرن السابع الهجري أن القرآن الكريم كان له التأثير المباشر في تأسيس علم البلاغة وإرساء النظرية النقدية العربية ، وذلك من خلال فكرة الإعجاز القـرآني الـتي شغلت الشعراء و الأدباء في أول الأمر ثم انتقلت إلى العلماء من بلاغيين ونقاد فضلاً عـن ازدهار الحياة الثقافية من خلال تداخل الثقافة العربية بثقافة الأمم الأخرى مثل الفرس والهند واليونان وقد كان هذا التداخل نتيجة لانتشار الدين الإسلامي الذي لم يختص بأمة واحـدة فاطلع العرب على علوم هذه الأمم من منطق وفلسفة وغيرها، وبدلا من إكمال مشـوار التطور والازدهار الذي وصلت إليه البلاغة وكذلك النقد في القرنين الخـامس والسـادس الهجريين على يد كل من الجرجاني والزمخشري اختار بعض العلمـاء طريقـة الاختصـار والتلخيص والتبويب طريقة لتقديم البلاغة بشكل خاص وإهمال النقد بشكل تـام وذلـك لإهمالهم التحليل الذي كان أداة للوصول إلى المفاهيم الخاصة بالفنون البلاغية وقـد يفسـر التدهور والجمود الذي وصلت إليه البلاغة والنقد بتدهور الحياة السياسية للعرب وانعكـاس هذا التدهور على أوجه الثقافة المتنوعة كالأدب والشعر والبلاغة والنقد وقد يرد إلى حالـة الخوف من الضياع بعد أن دارت الحروب الصليبية وسقطت المدن الأندلسـية واسـتمرت الهجمات المغولية ، إذ كثر التسجيل والتقليد وقل النقد وضعف صوته وانفصل على البلاغة ، التي أصبحت علماً منطقياً يقتصر على التفنن في التقسيم والتفريع [٤٦] وقد يعلل الضـعف والتدهور والجمود بانتشار العامية وهيمنة اللحن على العربية مما جعل الناس في أمس الحاجة إلى تعلم العربية وعلومها ، ولكن هذه الأسباب في جميعها تكاد تكون ثانوية ، أما السـبب الرئيسي فهو ابتعاد الناس وبشكل خاص العلماء عن القرآن من حيث البحث في إعجـازه وأسرار هذا الإعجاز من خلال القرآن وكأن هذا البحث قد وصل إلى نهايته بحيث لا يمكن

إضافة شيء وهذا ما لا يمكن القبول به فأسرار القرآن الكريم عديدة ولا يمكن الإحاطة بها وكلما غاص العلماء في بحثهم كانت هناك مساحة لم يصلوا إليها وخير دليل على ذلك الجهد الكبير الذي طرحه الجرجاني والذي ظن بعض الباحثين بأنه قال كل شيء بخصوص البلاغة والإعجاز والنقد إلا أن الزمخشري الذي جاء بعده وسع من دائرة التطبيق وإضافة بعض المفاهيم وحدد ووضح بعضها الآخر ، ولعل الخطأ الذي وقع به العلماء الذين جاءوا في القرن السابع وما تلاه من قرون إلى الوقت الحاضر هو الفصل بين البلاغة والنقد واتخاذ البلاغة علماً تعليمياً جافاً يقوم على القواعد والأسس العلمية التي تحلق ببعض الشواهد القرآنية والأدبية دون الوقوف عند اسرارها الجمالية وهذا ما سنجده في جهدي الرازي والسكاكي .

فخر الدين الرازي والريادة في التلخيص :

على الرغم من أن معظم البلاغيين والنقاد قد أفادوا ممن سبقهم في مجال بحثهم مثل العسكري وابن رشيق والجرجاني والزمخشري إلا أنهم لم يكرروا ما قيل قبلهم بل حاولوا أن يضيفوا ويناقشوا ويحللوا وهذا ما فعلها الزمخشري في " الكاشف " الذي كان يعكس مدى فهمه لآراء الذين سبقوه فأخذ يطبق ما قاله الجرجاني على القرآن الكريم بشكل كامل بل حاول أن يضيف بعض الإيضاحات بخصوص بعض الفنون البلاغية من خلال تحديد مفاهيمها وتوضيح دلالاتها ، أي أنه لم يكرر أو يلخص ما قاله الجرجاني ، ولكن عند قراءتنا لكتاب " نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز " للفخر الرازي فإننا سوف نلاحظ أن المؤلف أعاد ما تناوله الجرجاني من مفاهيم بلاغية وكانت الإعادة على شكل تلخيص بعدما نزع من الجهد أهم ما فيه وهو التحليل والتأويل والتعليل بشكل خاص كل ما يربط البلاغة بالنقد وهذا ما صرح به المؤلف في مقدمة الكتاب إذ يقول " أهمل رعاية ترتيب الأصول والأبواب وأطنب في الكلام الإطناب ... فلما وفقني الله لمطالعة هذين الكتابين يقصد بهما " دلائل الإعجاز " و " أسرار البلاغة " التقطت منهما معاقد فوائدهما ومقاصد فوائدها ، وراعيت الترتيب مع التهذيب ، والتحريم مع التقرير ، وضبطت أوابد الإجمالات في كل باب بالتقسيمات اليقينية ، وجمعت مفترقات الكم في الضوابط العقلية مع الاجتناب عن الإطناب الممل " [٤٧] فمن هذا الكلام نستدل على أن الرازي كان قاصداً في تركه التحليل الذي

يعقب الشواهد القرآنية والشعر و لم يكن قد غفله أو فات عليه ، بل وصف التحليلات المطولة التي أوردها الجرجاني بالإطناب المخل ، ويبدو من خلال كلامه أنه يميل إلى الإيجاز والتكثيف والاكتفاء بطرح المفاهيم دون إيضاحها .

ولما كان الإعجاز القرآني لا يخرج عن دائرة البلاغة وإيمان الرازي بذلك ، فقد عرض فكرة الإعجاز القرآني في أول الكتاب مستعرضاً المذاهب التي فسرت ذلك وهي أربعة: الأول يقول بالصرفة وهو ما ذهب إليه النظام ، والثاني يذهب إلى مخالفة أسلوبه الأساليب الشعر والنثر وبشكل خاص مقاطع الآيات ، والثالث: عدم وجود تفاوت في أسلوبه وهو ما يشيع في كلام العرب وهذا ما قال به الباقلاني ، والرابع: اشتمال القرآن على أخبار الغيب ، وقد نقض هذه الآراء معللاً الإعجاز بالفصاحة وهي عنده لا تختلف عن الجرجاني ترجع الألفاظ والمعاني ، وعلى الرغم من تلخيصه لجهود الجرجاني إلا أنه أخذ واستشهد ببعض الآراء لكل من الرماني والزمخشري [٤٨].

وإذا ما عدنا لمنهج الرازي في هذا الكتاب فإننا سنجد أنه يعد رائداً في أسلوب التلخيص التام الخالي من الإضافات والتحليلات فلم يسبقه أحد إلى تلخيص الجهود البلاغية و لم يبذل في هذا التلخيص جهداً سوى التبويب والتقسيم وعلى الرغم من قراءته الدقيقة والمتفحصة لجهد الجرجاني ، إلا أنه – أي الرازي – لم يحاول الإفادة من منهجه في التحليل وفاته أن البلاغة تستند إلى الذوق والمشاعر في فهم دلالات فنونها ، فهي – من خلال من يتخذها أداة لتحليل النصوص – تحاول أن تأخذ بيد المتلقي إلى مواطن أسرار الجمال الفني في النص وهذا ما أكده الجرجاني بقوله : " لأن المزايا التي تحتاج أن تعلمهم مكانها وتصور لهم شأنها ، أمور خفية ، ومعان روحانية ، أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها ، ويكون له ذوق وقريحة يجد لها في نفسه إحساساً بأن من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيه المزية على الجملة،وممن إذا تصفح الكلام وتدبر الشعر فرق بين موقع شيء منها وشي)[٤٩]فالذوق الذي يعده الجرجاني أساس لتحسس جمال النص الأدبي لا تجد له أثراً في تلخيص الرازي ، الذي أراد أن يؤكد حقيقة تتمثل في كون البلاغة علماً لا يختلف بشيء عن علم النحو أو الصرف إذ يقوم على مفاهيم محددة ومقسمة وجامدة وعلى الرغم من اختياره هذا المنهج في تقديم البلاغة إلا أنه لم يصل إلى ما وصل إليه فيما بعد السكاكي (٦٢٦هـ) في هذا الباب .

السكاكي وتداخل البلاغة بالمنطق والفلسفة :

إذا كان الرازي قد بدأ بالتلخيص والتقسيم والتحديد في البلاغة فإن السكاكي قد أرسى القواعد الثابتة لهذا المنهج والتي امتد تأثيرها عدة قرون حتى وصل هذا التاثير للقرن الحالي ، إذ لا يخرج معظم ما يكتب في البلاغة وفنونها عما طرحه السكاكي ، ويتضح مفهوم هذا العالم للبلاغة من خلال كتابه الشهير " مفتاح العلوم " إذ تناول البلاغة مع النحو والصرف والعروض والقافية فتناول هذه العلوم بمنهج واحد يتمثل بالتقسيمات المنطقية والتعليلات الفلسفية ، إذ هيأت عقليته المنطقية المنظمة محاولة تقنين البلاغة العربية وتبويبها وإخضاعها للتقعيد ، وقد كانت محاولته من الدقة والصرامة بحيث حولت البلاغة إلى مجموعة من القوانين الجامدة والقواعد الجافة التي لا تختلف عن قواعد النحو والصرف والعروض .

وعودة للقسم الثالث من كتاب المفتاح نجد أن المؤلف أودع البلاغة علمين أساسين هما علم المعاني وعلم البيان أما الألوان البديعية فلم يجعلها علماً بل ألحقها بهما ، وعد هذه المحسنات " وجوه مخصوصة ، كثير ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام " (٥٠) ، ويبدأ بإعطاء التعريفات لكل علم وأقسامه التي يشتملها ممثلاً لها بشواهد من القرآن الكريم والأدب العربي ، وهو في جميع ما يطرحه يتأثر بمن سبقه وبشكل خاص الجرجاني والزمخشري والرازي ، وفي قضية الإعجاز ذهب إلى ما ذهب إليه الرازي الذي تأثر بالرماني بقوله: أن للبلاغة حداً أعلى وآخر أسفل وبينهما مراتب كثيرة بتفاوت البلغاء وجعل الحد الأعلى مختصاً بالإعجاز القرآني .

ولو دققنا النظر في منهج السكاكي فإننا سنجد أن تلخيصه لجهود من سبقه في هذا الميدان كانت أدق من تلخيص الرازي وهذا يرجع إلى أن عقله كان أكثر دقةً وضبطاً للمسائل المطروحة وأكثر تنظيماً في التقسيمات وأكبر قدرة في البرهان ، ولكن مع ذلك كله لم يتضمن تحليلات كالتي مرت بنا عند الجرجاني والزمخشري التي تقرب المتلقي من النص وتجعله أكثر إحساساً بجمالياته ، فلا نكاد نرى أي سمة جمالية في كتب المفتاح ، إذ ضحى في سبيل التبويب الصارم والتقسيم المنطقة بأهم ما تتميز به البلاغة كعلم جمالي ذوقي في الدرجة الأولى ، وظيفته أن يبحث عن جوانب الجمال الفني في العمل الأدبي قبل أن يبحث عن القواعد و التقسيمات ، وإذا ما بحث عن ذلك فهو من أجل الوقوف عند الجوانب الفنية ، وعلى أهمية القاعدة إلا أن الإسراف فيها على حساب الفن يشكل خطورة عليه ، وهذا ما

وقع فيه السكاكي الذي أخفق في تحقيق التوازن بين الذوق والقاعدة ، بعد أن طغى التقسيم والتبويب على الذوق [٥١] .

و لم يقتصر أثر السكاكي وكتابه على البلاغة في عصره ، بل امتد هذا التأثير ليشمل القرون التي تلت عصره وليصل إلى العصر الحديث ، إذ لم يأت العلماء الذين جاءوا بعده بالجديد و لم يستطيعوا أن يخرجوا عن منهجه في عرض فنون البلاغة واقتصرت الجهود التي جاءت بعده على الشروحات والتلخيصات ، فقد حظي كتاب المفتاح وبشكل خاص القسم الثالث الخاص بالبلاغة بما لم يحظ به كتاب قبله في تاريخ البلاغة من اهتمام العلماء وإقبالهم حيث عكفوا عليه يشرحونه ويلخصونه وينظمونه ، وقد أدى هذا الاهتمام إلى هيمنة هذا العقم على أفق التأليف البلاغي إلى هذا العصر ، وكان من أشهر من لخصوا القسم الثالث من المفتاح ، الخطيب القزويني (٧٣٩هـ) في كتابه المشهور " تلخيص المفتاح " الذي فاقت شهرته شهرة كتاب المفتاح ، وعلى الرغم من أنه حذف بعض الأشياء من المفتاح وأضاف أشياء أخرى إلا أنه لم ينجح في الارتقاء بالبلاغة العربية [٥٢] أو محاولة إرجاع صورتها التي كانت عليها في عهد الجرجاني والزمخشري .

والملاحظ على مرحلة التدهور والجمود التي مرت بها البلاغة العربية والنقد وما زالا يمران بها كان السبب فيها بالدرجة الأساس الابتعاد عن جماليات النص القرآني وأسرار إعجازه وهذا الابتعاد ازداد أكثر في عصرنا الحديث إذ أصبح بعض النقاد يعلل تأثره بالغرب بالحال التي وصلت إليها البلاغة وكذلك النقد في القرن السابع الهجري وما بعده ، دون المحاولة بالعودة إلى ما قبل هذا القرن من أجل تطوير التحليلات التي قام بها الجرجاني ومحاولة إعادة البلاغة إلى صورتها الأولى والإفادة منها في تطويرنظرية نقد عربية تنطلق من الإرث العربي الإسلامي في عصوره الزاخرة .

الخاتمـــــة والنتائـــج :

بعد هذه الرحلة المتواضعة التي وقفنا فيها عند النشأة الأولى لكل من البلاغة والنقد وعرجنا بالحديث عن مراحل تطورهما والعوامل التي أسهمت في هذا التطور لا بد لنا من تسجيل أهم النتائج التي خرج بها البحث .

فمن هذه النتائج وأهمها دور القرآن الكريم من خلال فكرة الإعجاز القرآني في بلورة النشأة الحقيقية لكل من البلاغة والنقد إذ كان تحدي القرآن للعرب وتأكيده عجزهم في الإتيان بما يشاكل القرآن على بلاغتهم التي أقرها لهم النقطة التي بدأ منها عدد من العلماء وبشكل خاص المتكلمين من معتزلة وأشاعره للبحث عن أسرار هذا الإعجاز، وقد أدى بحثهم في هذا الموضوع إلى وضعهم العديد من المفاهيم البلاغية والنقدية التي نتج عنها وصولهم إلى اسرار الإعجاز القرآني وكان ذلك على يد العلامة الكبير عبد القاهر الجرجاني الذي وصل كل من البلاغة والنقد في عصره ومن خلال مؤلفاته إلى قمة الازدهار والتطور وقد ثبت أن القرآن الكريم كان سبباً رئيسياً و لم يكن واحداً من مجموعة أسباب أسهمت في نشأة وتطور البلاغة والنقد فضلاً عن أسباب ثانوية أخرى .

ومن النتائج الأخرى التي خرج بها البحث تلازم البلاغة والنقد في النشأة والتطور، إذ توصل الباحث بأن أي فصل بينهما يؤدي إلى فقدان كل منهما إلى ركائز مهمة ، إذ تعتمد البلاغة على التحليل والذوق الذين يقوم عليهما النقد وكذلك النقد الذي يعتمد على المفاهيم البلاغية التي تسهل للناقد عملية الكشف عن مواطن الجمال في النص الأدبي .

أما آخر النتائج التي توصل الباحث إليها فهي مرتبطة بالنتيجتين الأوليتين إذا رأينا أن التدهور والجمود الذي وصلت إليه البلاغة في القرن السابع والتراجع والضياع الذي كان عليه النقد في هذا القرن والقرون التي تلته كان نتيجة لابتعاد العلماء والنقاد في تأليفهم عن القرآن وتوقف عملية الكشف عن أسرار المجاز وتحليل آياته وأسلوبه من جهة، والفصل بين البلاغة والنقد من جهة أخرى حيث أصبحت البلاغة مجرد قواعد جامدة خالية من التحليلات التي تكشف عن جماليات النص ، فضلاً عن ميل النقد إلى الاعتماد على الغرب بشكل كبير وابتعد كثيراً عن نظرية النقد التي وضع معظم أركانها الجرجاني .

وأخيراً نحمد الله الذي من علينا بفضل ونسأله أن يجعلنا ممن يقومون على خدمة القرآن ومن الله العزم والعون .

الهـــوامش

(١) الأغاني ، أبو فرج الأصفهاني ، طبعة دار الكتب ، القاهرة ، ٣٤/٩.

(٢) الموشح ، المرزباني ، تحقيق علي محمد الجاوي ، القاهرة ، ١٩٦٥.

(٣) تاريخ النقد المنهجي عند العرب ، إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٥ ١٩٨٦ ، ص١٤.

(٤) البلاغة تطور وتاريخ: شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٨ ، ١٩٩٠ ، ص١٣.

(٥) الكامل في اللغة والأدب: المبرد ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ٢٧٢/١.

(٦) تفسير الكشاف: الزمخشري ، تحقيق أحمد مرسي عامر ، دار المصحف ، القاهرة ، ١٩٧٧، سورة المدثر.

(٧) ســـورة هـــود: آية ١٣.

(٨) البلاغة تطور وتاريخ: ص ٣٩ وما بعدها.

(٩) معاني القرآن: الفراء ، تحقيق أحمد بخاتي ، محمد علي البخاري ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٥٥.

(١٠) ســـورة البقرة: الآية ٢٠٤.

(١١) مجاز القرآن،أبو عبيدة ،تحقيق محمد فؤاد سكسين ،مكتبة الخانجي ،مصر ،١٩٨٨ ،ص٣١

(١٢) ســـورة البقـــرة: الآيـــة ٢٠٤.

(١٣) الحيوان: الجاحظ ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، ١٩٤٥ – ٢٨٩/٤.

(١٤) البيان والتبيين: الجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ، ١٩٦١.

(١٥) الحيوان: الجاحظ ، ٨٥/٣.

(١٦) تاريخ النقد الأدبي: إحسان عباس ٣٤٢.

(١٧) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: تحقيق خلف الله وزغلول سلام ، دار المعارف ، القاهرة ص٦٩.

(١٨) تاريخ النقد الأدبي: إحسان عباس ، ص٣٤٢.

(١٩) ثلاث رسائل في الإعجاز القرآني: ص٧٢.

(٢٠) ثلاث رسائل في الإعجاز القرآني: ص٦٤.

(٢١) إعجاز القرآن: الباقلاني ، تحقيق أحمد صقر ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص١٦٢.

(٢٢) إعجاز القرآن الباقلاني ، ص ٥٤.

(٢٣) إعجاز القرآن: الباقلاني ، ص ٢٣٥.

(٢٤) إعجاز القرآن: الباقلاني ، ص ٢٦٨.

(٢٥) إعجاز القرآن: الباقلاني ، ص ٢٧٠.

(٢٦) كتاب الصناعتين: أبو هلال العسكري ، تحقيق البجاوي محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة، ١٩٥٢ ،ص٣ .

(٢٧) ينظر كتاب " تأويل مشكل القرآن " ابن قتيبة ، الموازنة للأميري ، سر الفصاحة ابن سنان.

(٢٨) دلائل الإعجاز: الجرجاني ، تحقيق محمد رشد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٢ ، المقدمة.

(٢٩) دلائل الإعجاز: الجرجاني ، ص ٢٩٩-٣٠٠.

(٣٠) دلائل الإعجاز: الجرجاني ، ص٣٢.

(٣١) دلائل الإعجاز: الجرجاني ، ص٦٤.

(٣٢) ينظر أسرار البلاغة: عبدالقاهر الجرجاني ، تحقيق ريتر اسطنبول ١٩٥٤ ، ينظر حديثه عن الاستعارة والتشبيه أقسامهما.

(٣٣) البلاغة تطور وتاريخ: شوقي ضيف ، ص١٦٤.

(٣٤) سورة مريم: الآية ٤.

(٣٥) دلائل الإعجاز: ص٨٠.

(٣٦) سورة القمر: الآية ١٢.

(٣٧) النقد المنهجي عند العرب: محمد مندور ، نهضة مصر ، ط(د.ت) ، ص٢٨٣.

(٣٨) من مؤسسي الأسلوبية الحديثة.

(٣٩) دلائل الإعجاز: ص ٦٨.

(٤٠) النقد الأدبي الحديث: محمد غنيمي هلال ، نهضة مصر للطباعة ، القاهرة (د.ت) ٢٦٣.

(٤١) دلائل الإعجاز: ص ٦٨.

(٤٢) النقد المنهجي: محمد مندور ، ص٢٩٠.

(٤٣) انظر الكشاف: الزمخشري.

(٤٤) سورة البقرة: الآية ١٦.

(٤٥) الكشاف: ج١ ، ص ٣٩.

(٤٦) تاريخ النقد المنهجي عند العرب: ص ٤٦٩.

(٤٧) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: فخر الدين الرازي ، تحقيق إبراهيم السامرائي ، محمد علي بركات ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ١٩٨٥ ، ص٨.

(٤٨) البلاغة تطور وتاريخ: ٢٨٥.

(٤٩) دلائل الإعجاز: ٤٢٠.

(٥٠) ينظر: التلخيص في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، شرح عبدالرحمن البرقوقي، دار الكتاب الوعي ، بيروت.

(٥١) البلاغة العربية تاريخها ومصادرها: علي عشري زايد ، مكتبة الشباب ، مصر ١٩٨٢ ، ص ١٤٥.

(٥٢) ينظر: التلخيص في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، شرح عبدالرحمن البرقوقي، دار الكتاب الوعي ، بيروت.

المصادر والمراجع

١) القـــرآن الكريـــم .
٢) أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق ريتر ، أسطنبول ، ١٩٥٤م.
٣) إعجاز القرآن: الباقلاني ، تحقيق أحمد صقر ، القاهرة ١٩٥٤م.
٤) الأغاني: أبو فرج الأصفهاني: طبعة دار الكتب ، القاهرة.
٥) البلاغة تطور وتاريخ: شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٨ ، ١٩٩٠.
٦) البلاغة العربية تاريخها ومصادرها: علي عشري زايد ، مكتبة الشباب ، مصر ١٩٨٢.
٧) البيان والتبيين: الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٩٦١.
٨) تاريخ النقد المنهجي عند العرب: إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨٦.
٩) التلخيص في علوم البلاغة: الخطيب القزويني،شرح عبد الرحمن البرقوي،دار الكتاب الوعي ، بيروت.
١٠) ثلاث رسائل: في إعجاز القرآن: تحقيق خلف الله وزغلول سلام ، دار المعارف القاهرة.
١١) الحيوان : الجاحظ: تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ١٩٤٥.
١٢) دلائل الإعجاز: الجرجاني ، تحقيق محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٢.
١٣) الكامل في اللغة والأدب: المبرد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٥٦.
١٤) كتاب الصناعتين:أبو هلال العسكري،تحقيق البجاوي محمد أبو الفضل إبراهيم،القاهرة ١٩٥٢
١٥) الكشاف: الزمخشري ، تحقيق أحمد مرسي عامر ، دار المصحف ، القاهرة ١٩٧٧.
١٦) مجاز القرآن: أبو عبيدة ، تحقيق محمد فؤاد سزكين ، مكتبة الخانجي ، مصر ١٩٨٨.
١٧) معاني القرآن: الفراء،تحقيق أحمد نجاتي،محمد علي البخاري،دار الكتب المصرية،القاهرة ١٩٥٥.
١٨) مفتاح العلوم: السكاكي ، المطبعة الأدبية ، مصر ، ط ١٣١٧هـ.
١٩) الموشح: المرزباني ، تحقيق على محمد البجاوي ، القاهرة ١٩٦٥.
٢٠) النقد الأدبي الحديث: محمد غنيمي هلال ، نهضة مصر للطباعة ، القاهرة ، (د.ت).
٢١) النقد المنهجي عند العرب: محمد مندور ، نهضة مصر ، ط (د. ت).
٢٢) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: فخر الدين الرازي ، تحقيق إبراهيم السامرائي ، محمـــد علـــي بركات ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ١٩٨٥.